التنغيم في القرآن الكريم

- دراســة صوتية –

تأليف

الدكتورة سناء حميد البياتي

جامعة بغداد / مركز إحياء التراث العلمي العربي

العراق

جامعة كامبرج / مركز الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية

أستاذ زائر/2007

بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة العربية لغة موسيقية :

من المعلوم أن اللغة تتألف من عناصر صوتية متنوعة ، و من المعلوم أيضاً أ ن الموسيقى تصدر عن أصوات ذات نغمات متنوعة ، وب هذا فإن اللغة تشترك مع الموسيقى في الوحدات الجزئية المكوّنة لكل منهما ، وهذه الوحدات المشتركة هي (الأصوات) لذلك يمكننا القول إن كل لغة تحمل صفة تنغيمية أو موسيقية خاصة بها ، وربما تتفوق لغة من اللغات في هذه الصفة التنغيمية كما هو الحال في اللغة العربية عندما تنتظم كلماتها بطريقة خاصة يقصد منها التأثير في السامعين وليس الإفهام فحسب.

وللتنغيم أثر عجيب في النفس البشرية ، وكان العربي بطبيعته ميالاً إلى النغم والإيقاع فشغف بحسن التوزيع ، توزيع الأصوات في الكلمات ، وتوزيع الكلمات في الجمل وتوزيع الجمل في سياق كلامه ، ذلك التوزيع المتقن على فترات زمنية متساوية في أغلب الأحيان ، مستجيباً بذلك لكل ما يتحسسه في حياته من إيقاعات سببها الانتظام أو التعاقب على فترات زمنية محددة ، فضربات القلب تشكل إيقاعاً متعاقباً منتظماً ، ووحدات التنفس تتعاقب بانتظام ، والليل والنهار يشكلان إيقاعاً ثنائياً ، والفصول الأربعة تشكل إيقاعاً رباعياً منتظماً وتحسس العربي كل هذا فرنت عنده الحاسة الإيقاعية ، وتولع بها ، وأخذ يدرب الأبنا ء عليها فقد سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي ، رحمه الله تعالى : " هل للعروض أصل عند العرب ؟ قال نعم، مررت بالمدينة حاجاً ، فرأيت شيخاً يعلم غلامه ، يقول له : قل : (نعم لا . نعم لا لا . نعم لا . نعم لا لا . نعم لا . نعم لا لا . نعم لا . نعم لا لا) فقلت له : ما هذا الذي تقوله للصبي ؟ فقال : علم يتوارثونه عن سلفهم يسمونه (التنعيم) لقولهم فيه : نعم قال الخليل فرجعت بعد الحج . فأحكمتها " [1]

وفي رواية أخرى وردت هذه الكلمة (التنغيم) بالغين المعجمة أي (التنغيم) [2] وسواء أ كانت الكلمة (التنعيم) أو (التنغيم) فلا يخفى ما في ذلك الحدث من إشارة إلى التدريب المبكر للأبناء على الإحساس بالإيقاع .

وإذا وضعنا نصب أعيننا أن العربي يعيش في بيئة خاصة شحذت خيال ة لحب التنغيم والترنم ، فصحراؤه واسعة مترامية الأطرف ، والطبيعة جميلة أخّاذة بمناظرها الساحرة ، تمد الشمس خيوطها الذهبية نهاراً لتملأ الكون نوراً وبهاء ، وتتناثر النجوم ليلاً كالجواهر وسط الظلام

---

1 دراسات في علم العروض والقافية – ص 13

2 ينظر : العروض والقافية – دراسة في التأسيس والاستدراك – ص 38

وفي هذه الأجواء عشق العربي النغم والإيقاع ، وتفاعلت نفسه مع تفاصيل الحياة و إيقاعاتها .. حتى مع خطوات الجمل السريعة حيناً والبطيئة أحياناً أخرى فعمدت إلى تنسيق بعض العبارات ومنحتها صفة إيقاعية اتضحت في المراحل الأولى لنظم الشعر.

وقد حاول بعض الباحثين توضيح الجوانب الموسيقية في اللغة العربية فأشاروا إلى أمثلة كثيرة تدل على التناسب الصوتي والتقابل الموسيقي في تركيب الكلمات وترتيب الحروف .. فالأصوات في اللغة العربية واسعة الأفق ، كاملة في مدرجها الصوتي ، حسنة التوزيع في هذا المدرج متميزة المخارج ، ثابتة الصفات عبر القرون ، يتوارثها جيل بعد جيل ، متنوعة الوظائف في بنية الكلمة مع تناسق بين أصوات اللغة، وأصوات الطبيعة ، وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة مما يدل على أن العربية ابنة فطرة الطبيعة لما بينها وبين الطبيعة من تقابل صوتي وتوافق في الجرس حكى عنه ابن جني في كتابه (الخصائص) ، كما نستطيع القول من غير تردد إن للأصوات في اللغة العربية إيحاء خاصاً ، فهي إن لم تدل دلالة قاطعة على المعنى ، تدل دلالة اتجاه وإيحاء ، وتثير في النفس جواً يهيئ لقبول المعنى ويوجه إليه ويوحي به.

والعربية لم تكتسب هذه الخصائص إلا لكون جميع ألفاظها ترجع الى نماذج من الأوزان الموسيقية في وحدتها الصوتية والتركيبية ووحدة الانسجام ، والتوفيق في الجرس والنغمة والإيقاع وما يلائمها من تأليف وحدة فنية ونفسية [1] وقد أشار الجاحظ إلى ذلك – أي إلى الموسيقي في اللغة العربية – عند تعليله لصعوبة ترجمة حكمة العرب في قوله : " لو حوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن " [2]

ومما يدل على موسيقية اللغة العربية ما روي لنا من مآثر الجاهليين في صورة خُطب ووصايا بُنيت على موسيقى اللفظ ووجهت كل العناية إلى الأصوات والسجع فغمرت المعاني ، وأصبح من المألوف التعبير عن المعنى القليل بألفاظ كثيرة استدلا لاً للموسيقى كما في نصيحة ذي الإصبع العدواني لأبنه :" ألِنْ جانبك لقومِكَ يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك " فهذه وأمثالها من العبارات المتقاربة في المعنى تفيد في خلق جو نغمى يؤثر في السامعين ويُهيئ نفوسهم لتقبل المعاني .

" ومن مظاهر الموسيقية في نثر اللغة العربية تلك العبارات الكثيرة التي تشتمل على ما يُسمى بالازدواج أو المزاوجة مثل : (حسن بسن) ، (شيطان نيطان)،(عفريت نفريت) ونحو هذا من عبارات تنتهي بكلمات لا معنى لها ولا تستعمل مستقلة وإنما جئ بها لتقوية البنية

---

1 ينظر : خصائص العربية – ص 25

2 الحيوان – ج75/1

فيما يسبقها من كلمات بترديد الأصوات المتماثلة ، وإن لم تفد معنى جديداً في غالب الأحيان وقد جمع ابن فارس في كتيب صغير أمثال تلك العبارات وسمى كتابه بالإ تباع والمزاوجة "[1] نخلص من ذلك كله إلى أن خصائص الأصوات والألفلظ والعبارات في العربية جعلتها تتمتع بجرس وتنغيم وإيقاع موسيقي مضافاً إلى ذلك حركة اللغة الذاتية ومرونتها المتمثلة في طواعية مفرداتها طواعية تتدرج بها تحت قوانين صوتية مطردة وتنطوي بها تحت قياسات منتظمة تناسب مقاصد التعبير ، وتجاوب اتجاهات المعنى [2] ... كل هذا وغيره يضعنا أمام حقيقة : هي إن اللغة العربية لغة موسيقية ، وتتميز عن غيرها من اللغات بصفتها التنغيمية العالية ، ويقول في ذلك أحد المستشرقين " التركيب العربي غني بالوقع الموسيقي "[3] ، ومن الباحثين من يذهب إلى أنك لو حاولت نقل أي كلام عربي أو صفحة من كتاب إلى رموز موسيقية وأوزان لوجدته يتركب من وحدات تتشابه وتختلف وتتكرر وتتناظر ، ويتألف من مجموعها قطعة موسيقية "[4]

ولقد استثمر الأدباء هذه الخصائص الموسيقية في اللغة العربية وساعدتهم على الإبداع حيث يتفق لهم مالا يتفق لغيرهم من الموازنة بين جرس الكلمات ونغم ة المفردات من جهة والأحداث المصوَّرة أو الأفكار المعبر عنها من جهة أخرى.

أهمية التنغيم في القرآن

---

1 دلالة الألفاظ – ص 204

2 ينظر : مقال (البيئة التي نشأ فيها الشعر الجاهلي وتياراته الكبرى) د. نجيب محمد البهبيتي – مجلة كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول المجلد الرابع عشر – الجزء الأول – مايو 1952 ص 90

3 آراء في العربية – ص37

4 خصائص العربية ، ص 38

قيل في الموسيقى : إنها غذاء النفس ، تبتهج النفس لسماعها ، وتحن إلى تأليف أوضاعها وقد نطقت الحكمة بعلو منزلة الموسيقى بين الفنون ، وقيل أيضاً : من فهم الألحان استغنى عن سائر اللذات[1].

وماهية الإيقاع ، ودقائق تموجاته يُترك للنفس ومدى إدراكها لخفاياه ، وُ يترك أيضاً للحس النفسي بالموسيقى ، فأهل هذا الفن يصرون على أن هناك حاسة سادسة تولد مع الطفل بها يدرك ما في الصورة من جمال ، وما في الموسيقى من سحر ، كما يتذوق بها ما في الشعر من حسن الخيال وجودة التصوير ، وقد تساعد البيئة على نمو هذه الحاسة وإرهافها ، او قد تعمل على ذبولها وا ركماشها ، فالطفل الذي يولد في بيئة تُعنى بالموسيقى ينشأ وهو أكثر استعداداً لتذوق الموسيقى وفهم جمال الإيقاع فيها من طفل آخر لم تتح له الظروف نفسها[2] .

وليس أدل على تأثير الموسيقى في النفس من استجابة الطفل للإيقاع ، تلك الاستجابة التي تتمثل في نوع من التمايل أو الرقص البسيط على إيقاع الأنغام [3].

وإذا كانت الموسيقى في حد ذاتها تؤثر في نفس الإنسان فيظهر تأثير الإيقاع على حركاته ، وتأثيو النغمات على إطلاق خياله ، فإن اللغة الغنية بالموسيقى يفوق سحرها وتأثيرها سحر الموسيقى وتأثيرها ، لأن اللغة معاني مؤثر ة أولا فإذا انتظمت بطريقة تنغيمية أو موسيقية صار التأثير مضاعفاً لوجود عاملين مؤثرين : المعاني أولاً ، والتنغيم ثانياً، والكلام الذي يتو فر فيه الإيقاع والتنغيم يؤثر في السامع انتباهاً عجيباً لما فيه من توقع لمقاطع تنسجم مع ما سبق سماعه ، فتتحفز النفس ، وتتهيأ لاستقبال المعاني والاستجابة لها أياً كانت تلك المعاني.

وقد أدرك العربي ذلك السر الكامن في اللغة ، فعمد إلى السجع في كلامه ، وعمد إلى الأوزان والقوافي في شعره، وأظهر تفوقاً وبراعة في حسن استخدام اللغة ، واستغل إمكانات اللغة كافة في الإيقاع والتنغيم ، ونستطيع القول بأن السبب في هذا الاهتمام الكبير بموسيقى اللغة يعود إلى أن العرب لم يكونوا أهل كتابة وقراءة بل أهل سماع وإنشاد وأدبهم أدب أ ذن لا أدب عين، فلجأوا إلى الأصوات ، والأنغام ، والإيقاع ، في إظهار البراعة ، واعتمدوا على مسامعهم في الحكم على النص اللغوي ، وبمرور الزمن اكتسبت تلك الآذان المران ، والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة ، وأصبحت مرهفة تستريح إلى كلام لحسن وقعه وإيقاعه ، وتأبى آخر لنبوه ، وكما تمرّن الآذان في بيئة كهذه ، تمرّن الألسنة أيضاً ، فتنطلق من عقالها وقد اكتسبت صفة

---

1 ينظر : محيط الفنون (الموسيقى العربية) ص 11

2 موسيقى الشعر – ص 5

3 التعبير الموسيقي – ص 20–21

الذلاقة ، فلا تتعثر ولا تزل أثناء النطق ، وتتعاون الأذن مع اللسان في مثل تلك البيئة على إيثار العناصر الموسيقية في اللغة ، ونفي العناصر النابية والتخلص منها[1].

وفي تلك البيئة نزل القرآن الكريم فاندهشت نفوس العرب وبهتت عقولهم ، لأنهم إنما سمعوا من خلاله ضرباً من الموسيقى اللغوية لا قبل لهم بها، لانسجامه واطراد نسقه ، وجمال ألفاظه ، وسمو معانيه ، وائتلاف حركاته وسكناته ، ومدّاته وغُناته ، واتصالاته وسكراته ونغماته الصادرة عن فواصله ، واتزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً ، ونبرة نبرة .. فأسترعى الأسماع ، واستهوى القلوب والنفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام من ظوم أو منثور ويرى دارسو الموسيقى أن " الرسالة الأولى للدين هي السمو بالروح والنزوع بالحياة البشرية إلى تخليصها من النزوات الجسدية والارتفاع بها إلى النور السماوي بما يسمو بها من عالم المادة إلى عالم الروح ، وما مهمة الموسيقى – في أسمى مناحيها – إلا أداء هذه الرسالة والتعبير عنها بإيقاظ المشاعر وإرهاف الحس والسمو بالعاطفة ، وانتزاع النفس انتزاعاً من محي طها الدنيوي المليء بالمطامع والدنايا للانطلاق في فضاء اللانهاية والتخلص من شوائب المادة"[2]

وقد جمع القرآن الكريم بين موسيقى الشعر حيث نغمة الوزن والاهتزاز النفسي لها – وما هو بشعر – وموسيقى النثر حيث الإيقاع العميق الذي يحدّثه حسن التوزيع بين الحروف ذاتها ، والكلمات والعبارات .. وموسيقى الحس حيث مشاركة الحواس لاهتزازات النفس من تأثير تموجات الموسيقى .. وموسيقى الروح حيث النشوة الهادئة النابعة من مجموع أنو اع الموسيقى التي سبق ذكرها ، فالقرآن اكتمال لنماذج موسيقية حيّة في تراكيب خالدة للغة العربية [3].

لهذا رأينا الخشوع يغمر من يقرأ القرآن أو يستمع إليه يوم سرت تلاوة القرآن الكريم بالصوت الجميل سريان العافية في الجسم السليم ، ومن إعجاز القرآن نظمه الموسيقى الرائع الذي يسيطر على مستمعيه ولو كانوا غير مسلمين حتى قيل فيه :" قوانين الموسيقى قد لحظت في القرآن تامة كاملة "[4].

كل هذه الأمور ، وأمور أخرى كثيرة ، جعلت القرآن الكريم معجزة فقال الله تعالى:

" **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**" (الإسراء 88)

وليس أدل على إعجاز القرآن في أُسلوبه وانبهار العرب وده شتهم لذلك التنغيم في التنظيم ، أي تنظيم الأصوات والكلمات والعبارات أن من عارضه كمسيلمة الكذّاب جنح في

---

1 ينظر : دلالة الألفاظ – ص 195–196

2 محيط الفنون – الموسيقى العربية – ص 62

3 ينظر : الإعجاز الفني في القرآن – ص 222

4 ينظر : محيط الفنون – الموسيقى العربية – ص 62

خرافاته إلى حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه ، فصبّ اهتمامه على موسيقى العبارة ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ، ودقائق التركيب البياني ، وكأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، إنما هي في موسيقى القرآن ، في أوزان الكلمات وأجراس الحروف ، دون ما عداها[1].

ودليل آخر على ما في القرآن من تنغيم معجز ذلك الأثر الذي أوقعه في نفوس القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد ، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ، ولا في نفوسهم فلانت قلوبهم ، واهتزت عند سماعه ، لأن فيهم طبيعة إنسانية تتأثر للتنغيم ، وكان الوليد بن المغيرة واحداً من الذين لانوا للقرآن ورقّوا له بعد مكابرة وعناد ، فقال فيه قولته المشهورة يرد على الكفار من قومه : " فو الله ما فيكم رج ل أعلم بالشعر مني ، لا برجزه ولا بقصيده ولا باشعار الجن ، والله ما يُشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إنّ لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مُغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى ، وإنه ليحطّم ما تحته".

فالحلاوة التي يقصدها الوليد هي : الموسيقى التي نتحدث عنها ، فقد أعطيت الألفاظ أوصاف المياه والطعوم من حلاوة أو مرارة ، وجرى ذلك على السنة النقاد فيما بعد فقد قال ابن الأثير :" ومن له أدني بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة أوتار .. وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم "[2].

إن تلك الحاسة المرهفة التي امتلكها العربي في تذوق اللغة تجعلنا نقول من غير تردد : إن للتنغيم في القرآن الكريم دوراً كبيراً في تكييف عقل السامع، وتهيئته لتلقي الدعوة واستقبال ما جاء به من معان سامية ، وإن التنغيم في القرآن يقع في مقدمة ما جذب العرب إلى القرآن.

ولذلك عدّ الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب التجويد والترتيل الإيقاعي من مظاهر الإعجاز الموسيقي في القرآن الكريم[3]

روافد التنغيم في القرآن الكريم:

ليس بجديد قولنا : إنّ في القرآن إيقاعا موسيقياً متعدد الأنواع ، يتناسق مع الجو الدلالي ، ويؤدي وظيفة أساسية في البيان ، وإن الموسيقى القرآنية إشعاع للنظم الخاص في كل موضع.

---

1 ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – ص 214

2 المثل السائر ج15/1

3 ينظر : تاريخ آداب العرب ج 22/2 ، 227

ونتحسس التنغيم في القرآن في كل مشهد وقصة ، وفي كل مطلع وختام ، ف أُسلوبه إيقاعي غني بالموسيقى ، مليء بالنغم المنحدر من الحركة ، ومن الحروف ، ومن اللفظ المفرد ، ومن التركيب ، فتُلقي كل آيةٍ ظلالها بجرسها وبنغمها حتى لنكاد عند قراءته أو تلاوته نسمع أصوات الأحداث غير المسموعة ، ونرى المشاهد غير المنظورة[1].

ولا تفاضل بين السور والآيات في هذه الظاهرة ، وعندما نشير إلى التنغيم في نظم معين ، إنما نقرر من خلاله ظاهرة تنغيمية بارزة نؤيدها بالشاهد.

وعلى الرغم من صعوبة احتواء روافد التنغيم كافة في القرآن الكريم ، لأنها متنوعة تنوّع موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه ، إلا أنني سأحاول الوقوف عند بعض الروافد التنغيمية البارزة في القرآن الكريم ، وأهمها :

أولاً : جرس الألفاظ

الجرس هو الصوت المترنم به ، وبما أن الألفاظ تبنى من الأصوات ، فهي إذن تمتلك جرساً ، وتتصف بصفة نغمية ، وكل لفظة لها جرسها الخاص الذي تحدده صفات الأصوات المؤلفة منها ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن كل لفظة لها وجهان : وجه الصوت أي الجرس ، ووجه الدلالة ، ولا يمكن استعمال اللفظة بإحدى الصفتين دون الأخرى ، كما لا يمكن فصل وجهي الورقة عن بعضهما.

وقبل أن نتطرق إلى علاقة أصوات الألفاظ بمعانيها لابد من ذكر تقسيمات علماء اللغة للأصوات فقد قُسمت أصوات اللغة إلى قسمين رئيسين هما : الصوامت ، والصوائت .

وأساس هذا التقسيم هو الطبيعة الصوتية لكل قسم فالصفة الصوتية الجامعة للقسم الأول أن مجرى الهوى يعُترض في حالة النطق بالأصوات الصامتة كلياً أو جزيئاً أما الصفة الصوتية الجامعة للقسم الثاني هو أن الهواء يندفع حالة النطق بالصوائت في مجرى مستمر ، خلال الحلق والفم والأنف دون أن يكون ثمّة عائق يعترض مجرى الهواء اعتراضاً كلياً أو جزئياً.

والصوامت في العربية أنواع:

1 –الصوامت الانفجارية وهي : الباء، التاء ، الدال ، الطاء ، الضاد، ال كاف ، القاف ، همزة القطع

2 –الصوامت الغناء أو الأنفية وهي : الميم ، النون .

3 –الصوامت المنحرفة ويمثلها : حرف اللام

4 –الصوامت المكررة وتتمثل في : حرف الرّاء

---

1 ينظر : مباحث في علوم القرآن الكريم – ص 334

5 –الصوامت الاحتكاكية وهي : الفاء ، الثاء، السين ، الصاد ، الشين ، الخاء ، الحاء ، الهاء ، وكلها مهموسة ، الذال ، الظاء ، الزاي ، الغين وكلها مجهورة .

6 –الصوامت الانفجارية الاحتكاكية أو (المركبة) وهو : حرف الجيم الفصيح

7 –أشباه الصوائت وهما صوتان : الواو ، المراد بها واو (وَجد) وأمثالها والياء المراد بها ياء (يَزن) وأمثالها.

أما الصوائت في الفصحى فنوعان:

1 –صوائت قصيرة وهي : الفتحة والكسرة والضمة.

2 –صوائت طويلة وهي : الألف الممدودة في م ثل : (قال) ، والياء الممدودة في مثل (بديع) والواو الممدودة في مثل : (روح) [1]

وصُنفت الأصوات تصنيفاً آخر يتخذ الوترين الصوتيين أساساً له:

1 –المجهور : هو الصوت الذي تصحب نطقه ذبذبة في الأوتار الصوتية.

2 –المهموس : هو مالا تصحب نطقه هذه الذبذبة [2] وفي الأصوات المهموسة ينفرج الوتران الصوتيان مفسحين مجالاً للنفس أن يمرّ خلالهما دون أن يجابه أي اعتراض وفي الأصوات المجهورة يتضام الوتران الصوتيان بشكل يسمح للهواء المندفع خلالهما أن يفتحهما ويغلقهما بانتظام وبسرعة فائقة . وهذا يسمى تذبذب الوترين الصوتيين ، هذه الذبذبة تحدث نغمة موسيقية هذه النغمة الصوتية تسمى في الاصطلاح الصوتي (الجهر) ، كما تسمى الأصوات التي تصحبها هذه النغمة ، الأصوات المجهورة .

والأصوات المهموسة هي : الهاء ، الحاء ، الكاف ، الشين ، السين ، التاء ، الصاد ، الثاء ، الفاء وما تبقى من الأصوات فهي مجهورة.

إن معرفة صفات الأ صوات وطبيعة جرسها قد يعين على معرفة مدى التواشج بين صوت اللفظة ومدلولها فهذه القضية شغلت علماء اللغة– وذهب بعضهم إلى القول بأن الألفاظ جرت محاكية لأصوات الطبيعة – كعصف الريح ، وخرير الماء، وهدير البحر وغيرها ، وما هذه الأصوات إلا لألفاظ تعبر عن معناها بجرس تحاكي به ذلك الصوت فـ(القد) و(الطرق) وأمثلة أخرى ، ألفاظ تحكي الصوت الذي تعبر عنه، ومثلها (العواء) و (المواء) و (الثغاء) .. الخ.

ويعد ابن جني رائداً في الحديث المفصل عن هذه القضية فنقل رأي الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي مفاده " إنه موضوع شريف لطيف – تقول العرب (صرّ الجندب) و (صر

---

1 ينظر: علم اللغة – 148، 184 باختصار

2 مناهج البحث في اللغة – ص88

صرر البازي) كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة فقالوا ، (صر صريراً) وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : صر صر "[1]

وكان سيبويه قد تطرق إلى هذا الموضوع في (الكتاب) في حديثه عن (المصادر) التي جاءت على وزن (فَعلان) ، فهي تأتي للاضطراب والحركة (الغليان) لأنه زعزعه وتحرك ، ومثله (الغثيان) لأنه تجيش نفسه وتثور ، ومثله (الخطران) و (اللمعان) لأنه هذا اضطراب وتحرك، بمعنى أن حركات المثال (أي البناء) توالي حركات الأفعال .

وقد تلقف ابن جني هذه الفكرة ، ففصل القول فيها وذكر أن صيغة (الفَعلان) تفيد الاضطراب كالغليان والفوران ، و أن صيغة (الفعللة) تفيد التكرير مثل (القرقرة) و (الزعزعة) و (الجرجرة) ومنه (صرصر الجندب) أي كرر في تصريره .

وأن صيغة (الفُعلى) تفيد السرعة مثل : الشبكى والجمزى ، الولقى ، كما ذهب إلى أن تكرير العين في البناء دليل على تكرير الفعل فقالوا : كسّر ، وقطّع ، وفتّح ، وغلّق فقد جعلوا تكرير العين دليلاً على قوة المعنى المحدث به هو تكرير الفعل وهذا أيضاً من مساوقة الصيغة للمعاني[2] وقرر ابن جني أن الزيادة في المعنى يتبعها زيادة في المبنى ومثل لذلك بصيغة (استفعل) نحو استقدم ، استصرخ ، استسقى ... الخ.

ويتحدث ابن جني عما نريده في هذه الدراسة من ملاحظة صفات الأصوات وجرسها ومن ثم علاقة ذلك بالمعنى فيؤكد مناسبة الحروف في اللفظ لصوت الحدث ، مثل (قضم) حين يُقارن بالفعل (خضم) فتجد أن الأول (قضم) يستعمل في أكل اليابس في حين أن الثاني (خضم) يستعمل في أكل الرطب ويقرر أن هناك صلة وثيقة بين القاف الشديدة والصوت الناشئ عن أكل اليابس ، والخاء الرخوة والصوت الناشئ عن أكل الرطب – فكأنهم اختاروا الخاء لرخاوتها للرطب – والقاف لصلابتها لليابس حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث [3] ومن ذلك أيضاً " قولهم (النضح) للماء ونحوه ، و(النضخ) أقوى من (النضح) قال تعالى :

" **فيها عينان نضاختان** " (الرحمن 66)

فجعلوا (الحاء) لرقتها للماء الضعيف ، و(الخاء) لغلظها لما هو أقوى "[4]

ومن الأمثلة التي يضربها ابن جني ليؤكد حجة ما ذهب إليه قوله تعالى:

" **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزا** " (مريم 83)

---

1 الخصائص – ج152/2

2 الخصائص – ج155/2

3 ينظر : الخصائص ج2 / 157 .. وما بعدها

4 الخصائص ج2 / 158

أي تزعجهم وتقلقهم ، فهذا في معنى : تهزهم هزّا والهمزة أخت (الهاء) فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من (الهاء) وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهمزة ، لأنك قد تهز مالا بال له ، كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك "[1]

ويذهب ابن جني إلى أكثر من ذلك حين يحاول أن ينظر في ترتيب أصوات اللفظة المفردة ودلالة كل صوت على جزء من المعنى الذي تعبر عنه اللفظة ، ويقصد بترتيب الأصوات : تقديم ما يضاهي أول الحدث ، وتأخير ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي وسطه ، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب ، وذلك قولهم : (بحث) فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأ رض ، والحاء لصلحها تشبه مخالب ا لأسد وبراثن الذئب ونحوها ، إذا غارت في الأرض ، والثاء للنفث والبث في التراب ، وهذا أمر تراه محسوساً محصلاً[2].

أما عبد القاهر الجرجاني فقد كان له رأي آخر في الألفاظ يُفهم من قوله :" إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[3] ويري الجرجاني أن واضع اللغة لو كان قد وضع (ربض) مكان (ضرب) في الدلالة على الضرب لما كان في ذلك مما يؤدي إلى فساد ، ويؤكد أن النظر إلى الألفاظ ينبغي أن يكون من خلال السياق فأنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع وتثقل عليك توحشك في موضع آخر ويضرب مثلاً لذلك لفظه (الأخدع) فهي ثقيلة موحشة في بيت أبي تمام

يا دهر قوّم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خُرقِكْ

وهي (أي لفظة الأخدع) رائقة سائغة في بيت الصمة بن عبد الله القشيري :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وَجِعتُ من الإصغاء ليتاً وأخدعا

وفي هذه الدراسة نأخذ برأي ابن جني عندما ننظر إلى اللفظة ذاتها ، إلى جرسها ونغمها ، وما في أصواتها من إيحاء بالمعنى فقد يكون اللفظ بمفرده قادراً على أن يرسم في الذهن صورة المعني وذلك من خلال جرسه الذي يلقيه في الآ ذان ونأخذ برأي الجرجاني أيضاً ، عندما نرى اللفظة المفردة مهيأة بجرسها ونغمها للتعبير عن الدلالة ، وعندما يحتويها السياق وتنتظم فيه،

---

1 الخصائص ج2 / 146

2 الخصائص ج2 / 163

3 دلائل الإعجاز – ص 38–40

تتدفق تلك اللمحات المضيئة وتتفجر تلك الطاقات الإيحائية الكامنة في اللفظة ولا تقاطع بين الرأيين.

إن اختيار الألفاظ في النظم القرآني يتم بدقة معجزة ونقل السيوطي قول (البازري) في كتابه (أنوار التحصيل في أسرار التنزيل) :" اعلم ان المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن بعض ، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة ، وقد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ، ولابد من استحضار معاني الجمل أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأ حوال ، وذلك عتيد حاصل في علم الله تعالى، فلذلك كان القرآن ، أحسن الحديث وأفصحه"[1]

ولكي نلقي الضوء على بعض ألفاظ القرآن الكريم نقرأ ونتحسس أثناء القراءة قوله تعالى:

" **يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّا قلتم** "

(التوبة 38)

اثّاقلتم ، أي تباطأتم وتقاعستم .

يتصور الخيال ذلك الجسم المتثاقل ، يرفعه الرافعون في جهد ، فيسقط من أيديهم في ثقل " فكأن في هذه الكلمة طناً على الأقل من الأثقال

ولو أنك قلت : (تثاقلتم) وهي متساوية للفظة القرآنية (اثّاقلتم) في عدد الحروف ، لخف جرسها ولضاع الأثر المنشود ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها[2].

وعندما نقرأ قوله تعالى:

" **أنلزمكموها وأنتم لها كار هون** " (هود 28)

نحس أن لفظة (نُلِزمكموها) تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر وشد بعضها إلى بعض مما يسبب ثقلاً وصعوبة في النطق فالضمائر دُمجت بإكراه كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ويشدون إليه وهم منه نافرون وبذلك تكون هذه اللفظة الثقيلة هي اللفظة الفضلى في سياقها إذ عبّرت بجرسها عما لا تغني عنها أخرى – ولنتأمل قوله تعالى :

" **فكبكبوا فيها هم والغاوون** " (الشعراء 94)

تُصور لنا لفظة (كبكبوا) بجرسها ونغمها أولئك المجرمين وكيف يكبّون على وجوههم ، ويُرمون على بعضهم مهملين ، فنتخيل في هذه اللفظة جرساً يحدث صوت الحركة التي يتم بها فعل (الكبكبة) وهو جرس يسمعنا صوت دفعهم وسقوطهم بلا انتظام وقال الزمخشري في هذه الآية "

1 الإتقان في علوم القرآن – ج22/4

2 التصوير الفني في القرآن الكريم – ص 76

إن الكبكبة : تكرير الكب ، جعل التكرير (في اللفظ) دليلاً على التكرير في المعنى ، وكأنه إذا القي في جهنم (ينكب) كبة مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها "[1]

" **وهم يصطرخون فيها** " (فاطر 37)

إن لفظة (يصطرخون) بجرسها الغليظ ترسم في الخيال صورة غلظ الصراخ المختلط المنبعث من كل مكان ومن حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة كما نستشف من النسق الذي ا نتظمت فيه هذه اللفظة ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به وبذلك يكون جرس هذه اللفظة قد ساعد على إيصال صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون [2]

ولنتأمل لفظة (زُحزح) في قوله تعالى :

" **فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** " (آل عمران 185)

فليس ثمة لفظة أنسب من لفظة (زُحزح) في هذا السياق فهي بجرسها تصور مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات : فصوت (الحاء) المكررة و (الزاي) المكررة ترسم صورة لتكرير الحدث ، كما أن لفظة (زحزح) تستعمل للشيء الثقيل حتى تحركهُ قليلاً قليلاً ، فكان حجم الذنب يجعله ثقيلاً في ميزان الله تعالى ويقرب المذنب من النار قرباً يكاد يشك معه أنه قادر على الإفلات منها وإذا برحمة الله (تزحزحه) عنها وتدخله الجنة .

وليس هناك أفضل من لفظة (تحيد) في قوله تعالى :

" **وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد** " (ق 19)

إذ يُحس السامع بالرهبة في صدره حين سماعه (الدال) المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة (تحيد) ولا يتملكنا الشعور بتلك الرهبة مع لفظة أخرى مثل (تنحرف) أو (تبتعد) إذا ما جاءت بدلاً من لفظة (تحيد) [3]

وفي قوله تعالى "

" **وإن منكم لمن لَيُبطئَن** " (النساء 72)

ترتسم صورة (التبطئة) من خلال جرس العبارة وبخاصة في جرس (ليبطئن) فيحس القارئ أن اللسان يكاد يتعثر فيعمد إلى البطء في التلفظ حتى يصل إلى نهايتها ، وبذلك تتماثل هذه الأصوات بجرسها وتتطابق مع الدلالة تطابق وجهي الورقة مع بعضهما.

وعندما نتأمل قوله تعالى :

" **وقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن**" (فاطر 34)

---

1 الكشاف ج 3/ 253

2 ينظر : التصوير الفني في القران الكريم – ص 73

3 ينظر : مباحث في علوم القرآن – ص 335

نحس أن الفتحات المتتابعة على أحرف لفظة (الحَزَن) تضفي على جرسها خفة وسهولة تتناسب مع الجو الحاني الرحيم الذي منحه الله تعالى لهم.

هذه الآيات الكريمة شواهد على مماثلة جرس الألفاظ ونغمها للدلالات وإيحائها بالمعاني ومناسبتها للسياق .. وهذا قليل من كثير ولكنه يدل على أن اختيار الألفاظ في النسق القرآني اختيار (معنى وجرس) مما يجعل من المحال على أية لفظة في اللغة أن تحل محل اللفظة القرآنية وأن تؤدي ما تؤديه لما تحمله من دقة في المعنى ومن إيحاء في الجرس والنغم.

ثانياً : التكرار

التكرار ظاهرة لغوية واضحة في القران الكريم ، وهي فيه خالية من التكلف ، تساير مقتضيات التعبير الفني وتأخذ أشكالاً متعددة ، تارة في آية كاملة ، وثانية في جزء من العبارة ، وثالثة في الكلمة المفردة ، ورابعة في حرف واحد أو أكثر من حرف على امتداد النسق ، هذا فضلاً عن الجناس الذي تطرق السمع فيه أصوات مكررة ولكنها تبنى في ألفاظ مختلفة المعنى .

ويعود النغم في كل ما ذكرناه من أنواع التكرار إلى الأصوات المكررة ، فعندما تتكرر الآية يصدر نغم من جرّاء ترديد أصواتها وإيقاع من تساوي زمن النطق بها ، وعندما تتكرر الكلمة تتكرر الأصوات المؤلفة منها فتضفي على النظم نغماً متزا يداً يضاف إلى التوكيد الذي يُراد من ذلك التكرار وسنتناول هنا نوعين من التكرار لأهميتهما :

1- تكرار الصوت نفسه :

يتخذ النظم ا لقرآني أحياناً من الصوت المتكرر وسيلة لتصوير المعنى وتجسيمه ، والإيحاء بما يدل عليه ، معتمداً في ذلك على ما تتمتع به الأصوات من خصائص وصفات في الجرس والنغم ، فهي تشيع بجرسها الصوتي نغماً يُسهم في إبراز المعنى المراد ، فالصوت المفرد يختار بعناية وتصاحبه أصوات قد تكون متقاربة المخارج متماثلة الصفات إن احتاج الموقف ذلك ، وقد تكون متباعدة المخارج متباينة الصفات إن كان التباعد أدل على المراد وأكثر تصويراً له ، لنتأمل النغم المنبعث من الجرس الصوتي لحرف (السين) في قوله تعالى :

" **قل اعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس** " (الناس1-6)

فصوت (السين) الذي تكرر عشر مرات صوت صامت مهموس احتكاكي ، تلتقي الأسنان السفلى بالأسنان العليا عند النطق به ولا يمكن للإنسان أن ينطقه وهو مفتوح الفم ، وهو أدل بجرسه الصوتي الاحتكاكي الهامس على تصوير حالة الهمس الخفي التي يخافت بها أهل الجرائم والمكائد ، وبذلك يصور جرس الأصوات جو الوسوسة وما يفعله الشيطان حين يلقي في

روع الإنسان ما يزين له ارتكاب المعاصي ، وقد أسهم صوت (الصاد) الذي يشبه صوت (السين) في صفته وجرسه على زيادة النغم الموحي بالمعنى [1].

ولنتأمل جرس صوت (القاف) في قوله تعالى :

" **قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد** " (الفلق 1-5)

فصوت القاف المتكرر في السورة الكريمة ، صو ت انفجاري شديد ، وهو بجرسه اقدر على تهيئة النفس للانفجار على الشرور وعلى كل ما يؤذي في هذا الكون ،ويخلق هذا الصوت بجرسه القوي نوعاً من اليقظة والتنبه ، وذلك ما يستدعيه المعنى ، وتساند (القاف) في الجرس أصوات أخرى تمتلك الصفة نفسها التي يمتلكها صوت القاف و هي (الباء) في وقب ، (الدال) في العقد وقد انتظمت هذه الأصوات في الفواصل لتزيد من قوة الجرس ووضوح النغم.

ولنلاحظ تكرار صوت (الراء) في قوله تعالى :

"**يوم ترتجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة**" (النازعات6-8)

إن تكرار صوت (الراء) يساعد على تجسيم صورة الحدث المكرر ، فجرس الراء مكرر ، وفي نطقه تتابع طرقات اللسان على اللثة تتابعاً سريعاً حتى يكاد يصور بجرسه الحركة المتتابعة السريعة عند الرجفةأحسن تصوير ، ويساعد تكرار صوت (الجيم) وصوت (التاء) وصوت (الفاء) على تصوير الأحداث وتأمُّل السامع لها ، وكان تكرارها بطريقة متناوبة مما يجعلها ترسل نغماً وكأنها الموسيقى التصويرية التي تصحب المشاهد وبذلك تساعد هذه الأنغام على تثبيت الصورة في المخيلة ، واستقرارها في الذهن .

ثم لنقرأ ولنتحسس أيضاً تكرار الأصوات في قوله تعالى :

" **كلا إذا دُكت الأرض دكاً دكاً** " (الفجر 21)

إن جرس الأصوات في هذه الآية يكاد يجعل المنظر مرئياً والأصوات المنبعثة من المشهد مسموعة ، وقد ساعد على رسم هذه الصورة في الخيال ، صوت (الدال) المكرر ، وصوت (الكاف) المكرر والمشدّد ، وكلاهما صوتان انفجاريان ، ينحبس معهما الهواء فترة من الزمن ثم ينفجر، وهو ما إن ينحبس وينفجر مع صوت (الدال) حتى ينحبس وينفجر مرة أخرى مع صوت (الكاف) وهذه المرة بشدة أكبر ، لأن صوت مشدّد.

إن جرس الأصوات المكررة هنا يكاد يرسم صورة حسيّة لإطباق قدرة الله تعالى على الأرض ، والإحاطة بها ، وتوالي الدكّ والضغط عليها ، حتى لا يبقى منها شيء وتفنى.

---

1 ينظر : لغة القرآن الكريم في جزء عم – ص 348.

ويمكن ملاحظة ما لجرس الأصوات المكررة في النسق القرآني من أثر في تصور المعاني وتجسم المواقف في الآيات الكريمة الآتية :

" **فصبّ عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد**" (الفجر 13، 14)

" **وإذا الوحوش حشرت** " (التكوير 5)

" **القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة** " (القارعة 1–3)

وما على القارئ إلا أن يتحسس جرس الأصوات ، والنغم المتحدّر من النسق عند تأمله في المعاني وبعدها لا يتردد في الإقرار بما لجرس الأصوات المكررة من أثر كبير في تصوّر المعاني وتجسيدها في صور محسوسة وكأنها مشاهد تنبعث منها أصوات مسموعة .

3 –تكرار الآية أو أُسلوبها عند الحديث عن النغم الصادر عن تكرار الآية الكاملة لابد من الإشارة إلى التنغيم الذي يكتنف الأ ساليب ، لأن لكل آية أسلوباً خاصاً ، والتنغيم في الأساليب قسمان:

الأول : ينتهي بنغمة هابطة ، ويكثر استعمال النغمة الهابطة في التقرير لإفادة انتهاء الجملة وتمام المعنى .

والثاني : ينتهي بنغمة صاعدة وغالباً ما يكون في أسلوب الاستفهام [1]

وفي سورة الرحمن تتكرر الآية " فبأي آلاء ربكما تكذبان " إحدى وثلاثين مرة ، ونغمة إيقاعها تتنوع بتنوع السياق ويمتاز التكرار في سورة الرحمن في أن جله يأتي عقب آية قصيرة لها نغمة خاصة تخاطب الروح والعقل يسودها تارة تهديد وتخويف كما في قوله تعالى " سنفرغ لكم أيها الثقلان فبأي آلاء ربكما تكذبان " وتارة تسود النغمة نبرةُ التأمل والتبصر كما في قوله تعالى : " كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان " وتارة ثالثة تسود النغمةَ روحُ التحدي كما في قوله تعالى :" يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان " إلى غير ذلك من أنواع النغم والإيقاع الذي يحدثه التكرار في قوله تعالى " **فبأي آلاء ربكما تكذبان**".

وإذا أضفنا إلى هذا التنغيم العام الذي يحدثه أسلوب الاستفهام في الآية " فبأي آلاء ربكما تكذّبان " أضفنا النغمَ الذي يصدر عن تكرار كل صوت فيها والإيقاع الناتج عن تساو ي زمن النطق بها في كل مرة ، أدركنا مقدار النغم والإيقاع الذي اشتملت عليه سورة الرحمن في هذا الجانب فقط فضلاً عن جوانب نغمية أخرى كالفاصلة وغيرها مما سنشير إليها في المواضع المناسبة من هذا البحث .

وفي سورة النمل يتكرر أسلوب الاستفهام بنغمته المميزة الخاصة في قوله تعالى:

---

1 ينظر : الدلالة الصوتية في اللغة العربية – ص 149.

" أمّنْ خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله بل هم قوم يعدلون ، أمّنْ جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أمّنْ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاءَ في الأرضِ أ إله مع الله قليلاً ما تذكّرون ، أمّنْ يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يُرسلُ الرياح بُشراً بين يدي رحمته أ إله مع الله تعالى الله عمّا يشركون ، أمّنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أ إله مع الله قل هاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين " (النمل 60-64)

إن تكرار أسلوب الاستفهام المصدر بـ (أمّنْ) بنغمته الخاصة يحمل السامع على التدبر في السماء وما فيها ، والتبصر والتأمل في الأرض وما يجري عليها ، إنَّ تكرار عبارة (أ إله مع الله) الاستفهامية بفتح همزة الاستفهام وكسر همزة (إله) يُحدث نغمة تعلو وتهبط ثم تعود لتعلو في النهاية لتُفصح النغمة عن الاستفهام الذي يُقصد منه التوبيخ والتعجب ممن يجعلون مع الله إله آخر وقد وضع تعالى أمامهم كل الأدلة على أنه هو الخالق الواحد القادر الوهّاب.

إن نغمة الأسلوب المتكررة في هذه الآية تثير العقل والوجدان وتدعو السامع الى التأمل في قدرة الخالق العظيم.

وفي سورة الواقعة قال تعالى :

" نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في مالا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم " (الواقعة 57-74)

وهكذا يتكرر أسلوب الاستفهام بنغمته الخاصة التي تثير النفس وتحرك الخيال لتساعد على رسم صور متنوعة كلها تدعو إلى كشف الغشاوة عن العيون.

ثالثاً : المقاطع الصوتية

عرّف اللغويون (المقطع) تعريفات متعددة نأخذ منها قولهم بأنه (الوحدة) التي يمكن أن تحمل درجة واحدة من النبر في اللغات المنبورة ، أو نغمة واحدة في اللغات النغمية [1].

1 دراسة الصوت اللغوي – 238

إذن فالنغمة هنا هي المقصودة وسنلاحظ ما تؤديه المقاطع من دور نغمي في سياق الآيات الكريمة.

وأنواع المقاطع التي تتركب منها الكلمات في اللغة العربية هي :

1 –مقطع قصير : يتكون من صامت + حركة قصيرة مثل اللام وحركتها في لعب.

2 –مقطع طويل مفتوح : يتكون من صامت + حركة طويلة مثل (فا) في كلمة فاهم.

3 –مقطع طويل مقفل بصامت : يتكون من صامت + حركة قصيرة + صامت مثل لن، كمْ.

وهذه المقاطع يتكون منها الكلام المتصل ، وفي حالة الوقف يرد مقطعان اثنان هما :

1 –مقطع مديد مقفل بصامتين يتكون من صامت + حركة طويلة + صامت مثل زمانْ ، كانْ .

2 –مقطع مديد مقفل بصامتين يتكون من صامت + حركة قصيرة + صامتين مثل قدْرْ ، شَعْبْ .

ومعنى ذلك أن المقاطع في اللغة العربية إما قصيرة ، وإما طويلة ، وإما زائدة الطول ، واللغة العربية تشتمل على كلمات أحاديّة المقطع مثل (منْ) وثنائية المقطع مثل (لمّا) وثلاثية المقطع مثل (يُقاتِلْ) ورباعية المقطع مثل (يتعلمْ) وخماسية المقطع مثل (متخاصمينْ) وسداسية المقطع مثل (يتجاهلونَ) وسباعية المقطع مثل (متحدثيهما)[1] ولا يمكن للكلمة في اللغة العربية أن تزيد مقاطعها على سبعة مقاطع مهما اتصل بها من سوابق أو لواحق.

ولما كانت الكلمات تتكون من مقاطع متتابعة ، ولكل مقطع سماته الصوتية المميزة ، فإن ترتيب هذه المقاطع في الكلمات وتواليها على نسق معين ، ذو أثر كبير في إحداث أنواع من الموسيقى الداخلية المنبعثة من إيقاع المقاطع ونغمها ويزداد التعبير قدرة على التأثير عندما تتناسب نغمات المقاطع وإيقاعاتها مع الأفكار التي تعبر عنها وتصورها ، فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمناً أقل من الزمن الذي تستغرقه المقاطع المفتوحة وتلائم مواقف الحزم والجزم والقوة أكثر من المقاطع المفتوحة ولذلك كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لوناً من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة ، وكذلك فإن المقاطع المفتوحة تناسب لوناً آخر من التعبير لا يتأتى مع المقاطع المقفلة[2] وعندما نلاحظ استخدام القرآن الكريم لهذه المقاطع الصوتية وترتيبها على النسق بما يلائم المعاني الواردة فيه ندرك سبباً آخر من أسباب تأثرنا به ونعرف سراً آخر من أسرار أعجازه.

---

1 مناهج البحث في اللغة – 142

2 ينظر : لغة القرآن الكريم في جزء عم – ص 357

ولنتأمل قوله تعالى:

" **القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة** " (القارعة 1-3)

تصف الآية الكريمة يوم القيامة " وأي شيء هي القيامة ؟ إنها في الفضاعة والفخامة بحيث لا يدركها الخيال ، ولا يبلغها وهم إنسان ، فهي أعظم من أن توصف أو تصوّر ، ثم زاد في التفخيم والتهويل لشأنها فقال : وما أدراك ما القارعة ، أيْ أيّ شيء أعلمك ما شأن القارعة في هولها على النفوس ؟ إنها لا تفزع القلوب فحسب بل تؤثر في الأجرام العظيمة ، فتؤثر في السموات بالانشقاق ، وفي الأ رض بالزلزلة ، وفي الجبال بالدّك والنسف ، إلى غير ذلك من معقبات هذا اليوم العظيم وقيل : سُميت القارعة قارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع"[1]

ولو أعدنا النظر في المقاطع الصوتية التي تتألف منها هذه الآية الكريمة لوجدنا أن الغالب عليها هي المقاطع المفتوحة بنوعيها القصيرة والطويلة فقد بلغت ستة عشر مقطعاً من مجموع مقاطع الآية وعدتها عشرون مقطعاً.

الْ/ قا/ ر-/ ع-/ ةُ-/ ملْ/ قا/ ر-/ع-/ ةُ/ و/ ما /أدْ/ را/ك-/ملْ/قا/ر-/ع-/ةُ-/

فالمقاطع المقفلة اقتصرت على /ألْ/ ملْ (مرتين) /أدْ/ والباقي كله مقاطع مفتوحة.

إن كثرة المقاطع المفتوحة في هذه الآية الكريمة تفتح الأبواب أمام الخيال لتأمل الأهوال وهي تمنح المتأمل فسحة زمنية كا فية لتصور الفزع والهلع الذي يحل بالبشر في ذلك اليوم الموعود وإذا أضفنا إلى ذلك ما في صوت (القاف) من جرس قوي صاعق وقد تكرر هذا الصوت ثلاث مرات، وما في صوت الراء من صفة التتابع لطرقات اللسان عند أدا ءه ، وقد تكرر هذا الصوت في النسق أربع مرات .. ندرك مدى انسجام النغم المنحدر من هذه الآية مع المعاني وإيحاءه بتلك الأهوال

وفي قوله تعالى :

" **ويومئذ يتذكر الإنسان ، وأنى له الذكرى ، يقول يا ليتني قدمتُ لحياتي** "

(الفجر 23،24)

تعبر هذه الآية عن موقف الندم الذي يصيب الإنسان حين فوات الفرصة وكيف يكون في تلك الحالة ، ينوح ويبكي ويتحسر على ما فرط وعلى ما ضاع ، وقد عبّرت المقاطع عن المعاني خير تعبير ذلك أن المقاطع المقفلة في هذه الآية الكريمة قليلة وسائرها مقاطع مفتوحة ويتضح ذلك من خلال النظر إلى مقاطع الآية كاملة.

---

1 صفوة التفاسير – ص 595

(يَوْ /م-َ/ئـ- ِ/ذنْ/يـ- َ/تـ- َ/ذكْ/ك-َ/رُلْ/إنْ/سا /ن-ُ/و-َ/أنْ/نى /ل-َ/هذ /ذكْ/رى/يـ-َ/قوُ/ل-ُ/يا/ليـ/تـ-َ/ني/قدْ/دمْ/تـ-ُ/ل-ِ/ح-َ/يا/تي).

تأمل كيف توالت المقا طع الطويلة المفتوحة في الكلمات : الإنسان ، أنى ، الذكرى ، يقول يا ، ليتني ، لحياتي (سا، ني ، رى ، قو ، يا ، ني ، ي ا ، تي) وكأنها نوح النادم المتحسر على ما فرط في جنب الله .. (يا/ ني/يا/تي/) تأمل كيف يتراوح المد بالألف مع المد بالياء ليصور حالة الندم وال حسرة وما يصدر عن الإ نسان النادم من أصوات نواح تعبر عن حسرته ، إذ يتراخى صوت النواح وينحدر ، ليعود فيرتفع ممتداً إلى أعلى ويتراخى منخفضاً إلى أسفل . وبين هذه المقاطع الطويلة المفتوحة المعبرة عن الندم والحسرة والنواح يرد مقطعان مقفلان (قدْ) (دمْ) في كلمة (قَدَمتُ) ليتحقق بصوت الدال المجهور المضغوط في هذين المقطعين المقفلين النغم المطابق لذلك الضغط المتتابع الذي يحز في نفسه بسبب ما كان ينبغي أن (يقدمه) لحياته[1].

وفي القرآن الكريم آيات فيها لون من التعبير الهادئ المريح الذي تطرب له النفس وتترنم به ، ولا يلائم ذلك اللون من التعبير غير المقاطع المفتوحة الممتدة كما في قوله تعالى:

" **وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية، في جنة عالية لاتسمع فيها لاغية فيها عين جارية، فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة** "

(الغاشية 8-16)

لنلاحظ المقاطع الطويلة المفتوحة وهي : (جو، نا، ها، را، عا، لا، ها، جا، فو، وا، ضو، ما، فو، را، ثو).

ولنتأمل كيف عبّر النغم الممتد من هذه المقاطع الطويلة عن امتداد حالة النعيم ، وكيف انتثرت حروف المد نثراً خلال السياق لتعبر عن تعدد حالات السعادة ،وإننا لنمتد بخيالنا مع المدّات فترتسم في مخيلتنا صور لحالات النعيم المتعددة هناك ملونة بألوان الراحة والهناء .

ولنستمع إلى القرآن الكريم وهو يعبر بالمقاطع المقفلة أقوى تعبير عن معاني العقاب الصارم الذي ينزل بالظالمين الكافرين الجاحدين نعمة الله وفضله في قوله تعالى:

" **فصبّ عليهم ربّك سوطَ عذاب** " (الفجر 13)

تكاد هذه المقاطع المقفلة تصور الحزم والصرامة في ذلك العقاب المنصب عليهم في عنف وفي قوة ولا تلائم المقاطع المفتوحة مثل هذه المعاني ، ويساعد على تصور ذلك الموقف الشديد ما في جرس صوت (الصاد) من فخامة يسانده جرس صوت (السين) الذي يلفظ مفخماً قريباً من الصاد في هذا الموضع ، فعند نطقهما تُطبق الأسنان العليا على السفلى بقوة

1 ينظر : لغة القرآن في جزء عم – ص 360.

وكأنه تعبير عن إطباق العذاب على الكافرين ، يضاف إلى ذلك صوت (الباء) المشدّد الذي يتكرر في النسق ليوحي بجرسه الانفجاري بمعاني الشدة والعنف ، وبذلك يحقق النس ق بالتعاون ما بين المقاطع والأصوات أفضل حالات التعبير عن المعنى والإيحاء به.

رابعاً: توازن الإيقاع

نقصد بالإيقاع هنا : الزمن الذي تنطق به منظومة صوتية معينة ابتداءً من أول لحظة في نطقها إلى آخر لحظة ينتهي فيها نطق تلك المنظومة الصوتية فهو إذن (الأصوات + زمن النطق بها).

والإيقاع الذي نلاحظه هنا يأتي من مجموعة الأصوات التي تتألف منها الجملة أو التركيب التابع للجملة ، فكثيراً ما توضع الجمل والتراكيب في نظام دقيق يتساوى زمن النطق ب أصواتها ، فتحدُث إيقاعاً يستهوي النفوس ويُبهر العقول ، ولما كانت الجمل والترا كيب تعبر عن أفكار مستقلة تامة، لذلك يجد السامع لذة في هذه الأفكار أو المعاني الموزعة توزيعاً متناسقاً على زمن النطق بها، وتستمع الأذن لتكرار القالب الصوتي بحركاته وسكناته ومدّاته ، ذلك القالب الذي تُصب فيه الجمل ، فهو إطار صوتي موحّد يحتضن أفكاراً متنوعة.

وقد أشار الباحثون إلى جمال التوازن في القرآن الكريم حين قارنوا بين الوزن والتوازن فـ " كليهما من صور الإيقاع وهما أيضاً من القيم الصوتية التي تصلح أن تكون مجالاً للفن والجمال ، أما الوزن فبحسبك أن تتأمل ما يمنحه من الجمال للشعر والموسيقى ونحوهما ، وأما ال توازن فيكفي أن تنصت إلى صوت قارئ مجيد يرتل القرآن الكريم وسترى عندئذ أن ما في القرآن من جمال التوازن قد يجاوز أحياناً جمال الوزن ، وانظر كذلك إلى الكثير من أساليب الترتيل – وخاصة ما بني منها على قصار الجمل – وسوف ترى لها جاذبية خاصة تجتذب إليها انتباهك ، وتمنح أذنك من المتعة ونفسك من الارتياح مالا تجده في بعض الشعر والغناء"[1].

وقد أدرك الشعراء من ذوي الحس المرهف ما في الإيقاع المتوازن من روعة موسيقية ووفرة نغمية فعمدوا في بعض الأبيات إلى تساوي الوحدات بين الشطرين ، وهم بذلك يحدثون في هذا التنسيق نغماً يضاف إلى العروض والقافية كما في قول البحتري:

فأحجم لما لم يجد فيك مط مع اً وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

وفي النثر ، لاحظ البلاغيون القضية التي نحن بصددها وذكروها في دراستهم للسجع تحت مسمى (القرينة) ، لأن القرينة عندهم هي القطعة من الكلام المزاوجة للأخرى وهي في

1 البيان في روائع القرآن – ص 270

النثر بمنزلة البيت من الشعر [1] . وقسموا القرائن إلى ثلاثة أقسام : قصير ، ومتوسط ، وطويل وعدّوا القصير منها " أوعر أنواع التسجيع مسلكاً ، وأصعبها مدركاً ، و أخفها على القلب ، وأطيبها على السمع" [2] ، وأما المتوسط فمثلوا له بقوله تعالى:

" **سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوّى ، والذي قدّر فهدى ، والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى**" (الأعلى 1-5)

وجعلوا الطويل منه ما زاد على ذلك حتى يصل إلى عشرين كلمة أو اكثر ، وذهبوا إلى أن القرائن إما أن تكون متساوية في الطول ، وإما أن تزيد إحدى القرينتين على الأخرى بغاية قر يبة فإن طالت فذاك غير محمود[3].

وفي دراستنا هذه نوجه الانتباه إلى ما في القرائن من إيقاع وما تؤديه من دور نغمي مؤثر فلنتأمل الإيقاع المتوازن في قوله تعالى:

* (والنازعات غرقا)=(والناشطات نشطا) – (والسابحات سبحا)=(فالسابقات سبقا) (النازعات 1-3)
* (إن الأبرار لفي نعيم) = و (إن الفجار لفي جحيم) (الانفطار 13، 14)
* (إن إلينا إيابهم) ثم (إن علينا حسابهم) (الغاشية 25، 26)
* (وإذا الجبال سُيّرت) (وإذا العشار عُطلت) (التكوير 3، 4)
* (وإذا البحار سجّرت) (وإذا النفوس زوّجت) (التكوير 6، 7)

إن الإيقاع المتوازن للجمل في الآيات السابقة يستهوي القلب ، وتجد له الأذن لذة ، ويحدث نغماً يُسهّل حفظه وترديده ، وتلك دقة معجزة مبهرة في توازن الجمل في النسق القرآني. وتبدو الدقة في توازن الجمل كذلك عندما ينتظم النسق بأكمله مكوّناً إيقاعاً طويلاً متوازناً يشتمل على مجموعة إيقاعات قصيرة ، ومتوسطة ، فتزداد روعة البناء الموسيقي في ذلك النظم كما في قوله تعالى:

" **فأما من أعطى ، وأتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى** "

" **وأما من بخل ، واستغنى ، وكذّب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى**(الليل ، 5، 10)

ويزيد من روعة الإ يقاع في الآية السابقة وفي غيرها نغم الفواصل الذي سنفرد الحديث عنه لاحقاً، وبذلك جمع هذا النظم المعاني المتضادة في جمل متوازنة ، فجاء النسق القرآني في أجمل إيقاع وأحلى نغم.

---

1 صور البديع (فن الأسجاع) ص 195

2 الطراز – ص 23

3 ينظر الطراز – ص 25، 29

خامساً : تنويع الإيقاع

إذا كان الإيقاع المتوازن أحد روافد الموسيقى فإن تنويع الإيقاع رافد آخر من روافد الموسيقى في النظم القرآني ، ففي بعض السور ، وبخاصة السور التي تقتضي إيقاعات كثيرة ، يخرج النظم القرآني على رتابة الإيقاعات الذي ينتج عن تكرار القالب الصوتي وهو بهذا التنويع يُثري التعبير بأنغام موسيقية متنوعة تبعد عن النفس لشعور بالملل حين تتعود الأذن نمطاً مألوفاً من الإيقاع الموسيقي فتتضاءل متعة النفس به.

وقد جاء تنويع الإيقاع على نمطين مردّه في كليهما إلى طول الزمن الذي تصبُّ فيه الجمل.

النمط الأول :

المراوحة في الكم الموسيقي الناتج عن أصوات الجمل أو التراكيب وتفاوت الزمن المستغرق في نطقها فتأتي في النسق الجمل متوسطة الطول ، تتبعها التراكيب أو الجمل القصيرة ثم الجمل الطويلة ويعود النسق الى الجمل القصيرة او المتوسطة وهكذا كما في قوله تعالى :

" **ألم نجعل الأرض مهادا، والجبالَ أوتادا، وخلقناكم أزواجا، وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا، وبنينا فوقكم سبعاً شدادا ، وجعلنا سراجاً وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجّاجا، لنخرج به حباً ونباتا، وجنات ألفافا، إن يوم الفصل كان ميقاتا، يوم يُنفخُ في الصور فتأتونَ أفواجا ، وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبالُ فكانت سرابا، إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا، لابثين فيها أحقابا، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا، جزاء وفاقا**" (النبأ 6-26)

وإذا كانت الدراسات القرآنية قد عُنيت بالفاصلة في مثل هذه السورة ففي دراستنا هذه لا نقلل من شأن الفـاصلة وما يصدر عنها من نغم ولكننا نضيف رافداً موسيقياً آخر هو تنويع الإيقاعات الناتج عن تباين طول الزمن الذي صبت به الجمل وبذلك تتناسب الأنغام المتنوعة الصادرة عن الفواصل مع الإيقاعات المتنوعة الصادرة عن طول الجمل.

النمط الثاني :

التدرج في زيادة الكم الموسيقي الناتج عن أصوات الجمل أو التراكيب التابعة لها و هذا يعني التدرج في زيادة طول الزمن المستغرق في نطقها مما يسبب تصاعداً نغمياً متدرجاً تطرب له النفس كما في قوله تعالى:

" **إن للمتقين مفازا، حدائق وأعنابا، وكواعب أترابا وكأساً دِهاقا، لا يسمعون فيها لغواً ولاكذّابا ، جزاءً من ربك عطاء حسابا، رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا، يوم يقوم الروحُ والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا**" (النبأ 31-83)

ولنلاحظ كيف بدأ النسق بالجمل والتراكيب القصيرة فأحدثت إيقاعا قصيراً ثم جاء بالجمل متوسطة الطول ، ثم بعدها بالجمل الطويلة مما أحدث تدريجاً تصاعدياً في الكم النغمي وكأن

ذلك النغم يرافق النفس لتصعد في سُلّم التأثر درجة درجة حتى تصل إلى ذروة التأثر في نهاية النسق.

سادساً : نغم الفواصل

الفاصلة : هي الكلمة الأخيرة في الآية القرآنية وربما سُميت كذلك لأن بها يتم بيان المعنى ويزداد وضوحاً وجلاءً وقوة، ونستدل على ذلك من قوله تعالى:

" **كتاب فصّلتْ آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون** " فصلت (3) .

ومن قوله تعالى " **لو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آ ياته**"(فصلت 44 ففي التفصيل معاني التوضيح والبيان ،وقد اختصت لفظة الفاصلة بالقرآن الكريم ، ولم يكن مناسباً أن تطلق لفظة السجع أو القافية على الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية تنزيهاً للقرآن الكريم عن أن يكون شبيهاً بحديث الكهان الذي ارتبطت به لفظة السجع ، أو أن يكون ضرباً من الشعر الذي ارتبطت به لفظة القافية [1]، وهذا فضلاً عن أنها – أي الفاصلة – تجمع الصفات الفنية التي تحملها القافية والسجعة وتزيد عليهما بشحنة المعنى ووفرة النغم والسعة في الحركة [2].

وقد ورد ذكر مصطلح (الفاصلة) في كتب البلاغيين بوصفها ركناً من أركان السجع الذي اهتموا بدراسته وإرساء أركانه الثلاثة وهي :

1 –القرينة : وتطلق على القطعة من الكلام المزاوجة للأخرى ، وهي في النثر بمنزلة البيت من الشعر.

2 –الفاصلة : وهي الكلمة الأخيرة من القرينة وجمعها فواصل.

3 –الروي : وهو الحرف الأخير من الفاصلة ، وذكر في باب السجع توسعاً لأنه خاص بالشعر [3].

فالسجع إذن أعم من الفاصلة ، والفاصلة ركن من أركان السجع ، ولكنها الركن الأهم ، فإليها تنحدر موجات النغم ، وبها يختتم الإيقاع ، وعليها يتوقف جلاء المعنى فهي في موقع يجعلها تحمل طاقة هائلة في دلالتها ، وفي جرسها ونغمها.

---

1 ينظر : الإتقان في علوم القرآن – ج2 / 96، 97

البرهان في علوم القرآن – ص 54

2 التعبير الفني في القرآن – ص 208

3 صور البديع (فن الأسجاع) ص 190

وبالنظر لأهمية الفاصلة عُني البلاغيون بوضع شروط لها كي يكون السجع بديعاً وفي شروطهم نلاحظ تنبههم إلى أهمية جرس اللفظة ونغمها في هذا الموقع ، يقول يحيى بن حمزة العلوي :

" لكنه – يقصد التسجيع – لا يحسن ولا يصفو مشربه إلا باجتماع شرائط أربع:

الشريطة الأولى : ترجع إلى المفردات ، وهي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة المذاق ، رطبة طنّانة ، صافية على السمع ، حلوة ، رنانة ، تشتاق إلى سماعها الأنفس ، ويلذ سمعها على الآذان ، مجنبة عن الغثاثة والرداءة ، ونعني بالغثاثة والرداءة أن الساجع يصرف نظره إلى مؤاخاة الأسجاع ، وتطابق الألفاظ ، ويهمل رعاية حلاوة اللفظ ، وجودة التركيب وحسنه فعند هذا تمسه الرداءة وتفارقه الحلاوة.

الشريطة الثانية : راجعة إلى التركيب ، وهي أن تكون الألفاظ المسجوعة في تركيبها تابعة لمعناها ، ولا يكون المعنى تابعاً للألفاظ فتكون ظاهرة التمويه وباطنة التشويه.

الشريطة الثالثة:أن تكون تلك المعاني الحاصلة عن التركيب مألوفة غير غريبة ولا مستنكرة ولا ركيكة مستبشعة، لأنها إذا كانت غريبة نفرت عنها الطباع ، وكانت غير قابلة لها ، وإذا كانت ركيكة مجتها الأسماع.

الشريطة الرابعة : أن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى مغاير للمعنى الذي دلّت عليه الأخرى ، لأنه إذن يكون من باب التكرير ، فيكون على هذا لا فائدة منه"[1]

وإذا كان العلوي – في هذه الشرائط – قد ذكر أموراً عديدة تتعلق بجمال السجع فإنه قد خصص الشريطة الأولى لجرس اللفظة ولنغمها الرائق ، ولحسن وقعها على السمع ، ذلك لأن الصفات التي منحها القدماء للألفاظ من كونها (حلوة المذاق) (رطبة) (طنانة) (صافية) (طيبة) (رنّانة) كلها صفات تعود إلى جرس اللفظة وتناسق أصواتها ، وجمال نغمها بدليل أنهم ربطوا صفات اللفظة هذه بـ (السمع) فقالوا : (صافية على السمع) ، (تشتاق إلى سماعها الأنفس) (يلذ سمعها على الآذان) .

وقد أدرك الذين عمدوا إلى السجع في كتاباتهم الفنية قيمة هذا اللون من التعبير ، ووقعه على السمع وأثره في النفس مما يسهل حفظه ورسوخه في الذهن – فقد روى الجاحظ في البيان والتبيين أنه " قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي ، لِمَ تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه الإ سماع الشاهد لقلّ

1 الطراز – ص 21

خلافي عليك ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع والآذان لسماعه أنشط وهو أحق بالتقييد "[1]

وقد جعل أبو هلال العسكري هذا اللون من التعبير مقدماً على غيره حين ذهب إلى أنه " إذا سلم من التكلف ، وبرئ من العيوب لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه"[2].

وقد كثرت في القرآن الكريم الفواصل بوصفها وسيلة تعبيرية بالغة التأثير ، فعليها يتوقف اكتمال المعنى ، وفيها ذروة النغم ، وبها ينتهي إيقاع القرينة ، فهي إذن مشحونة بالنغم والإيقاع ، وبما لا يمكن للفظة أخرى في النسق أن توازيها في الكم الموسيقي ، وكثيراً ما تنزاح بعض الألفاظ عن مواقعها المألوفة في الجملة لتهيئ الفرصة للفظة أخرى أن تأخذ الموقع لأن الأخرى هي المناسبة أن تكون (الفاصلة) ففي قوله تعالى:

" **فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر** " (الضحى 9، 10)

تقدمت لفظة اليتيم (المفعول به) وانزاحت عن موقعها المتأخر غالباً فهيأت بذلك الفرصة للفعل (تقهر) أن يكون فاصلة مناسبة توازي (تنهر) وبذلك حصل في النسق ما يأتي :

1 -توازن إيقاع الجمل (القرائن) لتساوي الوحدات الصوتية في كل من (فأما اليتيم فلا تقهر) (وأما السائل فلا تنهر).

2 – انتهى الإيقاع بنغم متشابه يطيب سماعه (تقهر / تنهر) وبذلك ساعد انزياح المفعول به على تكوين تركيب جديد ونسق محمل بموسيقى متميزة فيها الدقة الإيقاعية والجمال النغمي

وفي قوله تعالى :

" **خذوه ، فغلّوه ، ثم الجحيم صلّوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه**"

(الحاقة 30–32)

فإذا كان في تقديم المفعول به (الجحيم) والجار والمجرور (في سلسلة) فائدة معنوية ذكرها البلاغيون هي : (التوكيد) أو (الاهتمام بالمتقدم) أو (التخصيص) فإن في هذا التقديم فوائد نغمية وموسيقية مضاعفة ذلك أن هذا التقديم حقق نسقاً فيه من الجانب النغمي ما يأتي:

1 –التدرج الإيقاعي المؤنس ، الذي ينتج عن جمل متدرجة في الطول ، فمن الإيقاع القصير (خذوه) (فغلّوه) إلى الإيقاع المتوسط (ثم الجحيم صلوه) إلى الإيقاع الطويل (ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه).

---

1 البيان والتبيين – ج1/281/282

2 كتاب الصناعتين – ص 204

2 –انتهاء موجات الإيقاع المتدرجة بنغمات متشابهة انطلقت من الفاصلة في (خذوه) (فغلّوه) (صلّوه) (فاسلكوه)

3 –التناوب المتناسق في عدد مقاطع الفواصل.

خذوه (ثلاثة مقاطع) خذوه = صلوه

فغلوه (أربعة مقاطع)فغلوه = فاسلكوه

صلوه (ثلاثة مقاطع)

فاسلكوه (أربعة مقاطع)

وبذلك تكون هذه الانزياحات في مواقع الألفاظ قد حققت نظماً أو نسقاً اكتملت فيه الموسيقى وبلغت ذروتها بالفواصل.

وعند ملاحظة الفواصل في القران الكريم نجدها تأتي على أنماط متعددة ، وقد وضع البلاغيون لكل نمط مصطلحاً وسنأخذ بمصطلحاتهم في هذه الأنماط وهي:

1– التوازي:

وهو عند البلاغيين يعني اتفاق الفواصل وتماثلها تماماً في (الوزن) وفي (الروي) وهذا النوع من الفواصل يحمل كمّاً موسيقياً كبيراً للتطابق التام بين الفواصل في عدد المقاطع ، ونوعها ، وفي الحركات والسكنات مما يجعل ايقاع هذا النوع من الفواصل متساوياً تماماً لتساوي الزمن الذي تنطق به فضلاً عن صوت الروي المتماثل أيضاً فيضفي جرساً ونغماً تطرب له الأذن ونلاحظ ذلك في مثل قوله تعالى:

" **والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع** " (الطارق 11، 12)

" **انه لقول فصلٌ ، وما هو بالهزل** " (الطارق 13، 14)

" **فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب** " (الانشراح 7، 8)

ويزداد الكم النغمي ويعلو عندما تتماثل أصوات أخرى غير الروي في الفواصل ، أي عند وجود ما يسمى بـ (لزوم ما لا يلزم) فيؤدي هذا التماثل للأصوات إلى إثراء التعبير بالأنغام الموسيقية المحببة التي تتلقفها الأذن بارتياح وتلتذ بها النفس ولنلاحظ ذلك في قوله تعالى:

" **والنجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى**"

(النجم 1، 3)

" **والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور** "

(الطور ، 1، 4)

" **إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق** " (العلق 1، 2)

" **قل أعوذ برب الفلق ، من شرّ ما خلق** " (الفلق 1، 2)

" **فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر** " (الضحى 9، 10)

" **فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس** " (التكوير 15)

ولزيادة التنغيم في بعض الآيات القرآنية وردت ألفاظ مماثلة لهذه الفواصل داخل النسق كما في قوله تعالى :

" **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، منفكّين حتى تأتيهم البيّنة** "

(البيّنة 1)

" **ألر كتاب أحكمت آياته ثم فُصلت من لدن حكيم خبير ،الا تعبدوا الا الله إني لكم منه نذير وبشير** "

(هود 1، 2)

" **ويل لكل همزة لمزة** " (الهمزة 1)

2- التوزان :

توازن الفواصل عند البلاغيين يعني اتفاق الفواصل في الوزن دون الروي وإذا كان تماثل الفواصل واتفاقها في الوزن وفي الروي يكسبها ثراءً موسيقياً ، فإن في التنويع والتغيير وانتقال الفواصل من التوازي إلى التوازن تنشيط للنفس و إيقاظ للذهن ، وإدخال لعنصر المفاجأة المثيرة عندما يتوقع السامع التماثل في الفواصل وإذا بها تحيد وتحقق تنوعاً نغمياً له لذته الخاصة وقد فصل ابن الأثير الكلام عن الموازنة بعض الشيء فقال : " هي أن تكون ألفاظ الفواصل في الكلام المنقور متساوية في الوزن .. وللكلام بذلك طلاوة ورونق وسببه الاعتدال ، لأنه مطلوب في جميع الأشياء ، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان وهذا لا مراء فيه لوضوحه"[1]

ومما وردت فيه الفواصل متوازنة قوله تعالى:

" **وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم** "

(الصافات 117، 118)

" **إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً ، عربا أتراباً ، لأصحاب اليمين**"

(الواقعة 35، 38)

" **وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب ، إن كل نفس لما عليها حافظ** "

(الطارق 2، 4)

" **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش** "

(القارعة 4، 5)

" **يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا، وفتحت السماء فكانت ابواباً** "

---

1 المثل السائر – ص 106.

(النبأ 18، 19)

3- التطريف:

الفواصل المطرفة – عند البلاغيين – ما اتفقت في الروي دون الوزن كقوله تعالى:

" **الذي جمع مالاً وعدده . يحسب أن ماله أخلده**" (الهمزة 2، 3)

فالفاصلة الأولى (عدده) على زنة (فَعّله)

والفاصلة الثانية (أخلده) على زنة (أفعله)

ولكن الملاحظ في النسق القرآني أن فوات الوزن في الفاصلة يعوّض بتطابق المقاطع أو تشابهها . فالفاصلتان السابقتان مختلفتان وزناً ولكنهما متماثلتان في عدد المقاطع وفي نوعها.

عدّده		**أخلده**
عدْ	مقطع طويل صامت	أخْ
د	مقطع قصيـر	لَ
ده	مقطع طويل صامت	ده

وبذلك تكون الفاصلة قد اكتسبت موسيقاها من الإ يقاع المتساوي للفاصلتين ، ومن نغمة الرو ي المتشابهة فيهما، .. ومثل هذه الفواصل من حيث اتفاق الروي واختلاف الوزن والتعويض عن اختلاف الوزن بتطابق المقاطع قوله تعالى:

" **إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها** " (الزلزال 1، 2)

زلزالها / أثقالها

نلاحظ اتفاق الروي و أصوات أخرى تزيد من نغم الفاصلة كما نلاحظ تطابق المقاطع الذي عوّض عن اختلاف الوزن.

زلزالها		**أثقالها**
زلْ	مقطع طويل مقفل	أثْ
زا	مقطع طويل مفتوح	قا
لَ	مقطع قصير	لَ
ها	مقطع طويل مفتوح	ها

ومثل ذلك قوله تعالى :

" **انه هو يبدئ ويعيد . وهو الغفور الودود** " (البروج13، 14)

يُعيد		**ودود**
يُ	مقطع قصير	وَ
عيدْ	مقطع طويل مقفل	دودْ

وإذا لم يعوض اختلاف الوزن بتطابق المقاطع فإنه يُعوض بتشابه المقاطع وتقاربها حتى يتناسب الإيقاع – وان لم يتطابق – ويؤدي دوره مع النغمة المتشابهة الصادرة عن اتفاق الروي و مثل ذلك قوله تعالى :

" **إنّهم كانوا لا يرجون حِسابا. وكذبوا بآياتنا كِذّابا** " (النبأ 27، 28)

حسابا		**كذّابا**
ح	مقطع قصير / مقطع طويل	كذْ
سا	مقطع طويل مفتوح	ذا
با	مقطع طويل مفتوح	با

وعلى هذا تساوت (حسابا) مع (كذّابا) في عدد من المقاطع وتشابهت في المقطعين الأخيرين ، والاختلاف في المقطع الأول فقط.

ومثل هذا الاختلاف الطفيف في الفاصلة ورد في قوله تعالى:

" **إلا حميماً وغسّاقا. جزاءً وفاقا** " (النبأ 25، 26)

غسّاقا		**وفاقا**
غسْ	مقطع طويل / مقطع قصير	و
سا	مقطع طويل	فا
قا	مقطع طويل	قا

وقد يكون اختلاف المقاطع في الفواصل بزيادة مقطع واحد في إحدى الفواصل ، من ذلك قوله تعالى :

" **وجوه يومئذ مسفره . ضاحكة مستبشر ة** " (عيسى 38، 39)

	مسفره	**مستبشرة**	
مقطع طويل مقفل	مسَ	مسَ	مقطع طويل مقفل
مقطع قصير	فِ	(تبْ)	مقطع طويل مقفل (الزيادة)
		ش	مقطع قصير
مقطع طويل مقفل	رة	رة	مقطع طويل مقفل

إن هذا الاختلاف في المقاطع ينتج عنه تنويعاً طفيفاً في الإيقاع يمنع الملل منه ، ويُبعد السامة والضجر وينشط الذهن ، ويُمتع السمع ، ولو جرى النغم والإيقاع في القرآن الكريم كله على وتيرة واحدة لما أحسسنا بتلك اللذة في سماعه ، وتلك المتعة في قراءته أو تلاوته ، وتلك ميزة معجزة تميز بها القرآن الكريم ، فمهما تعددت قراءتنا له أو سماعنا لآياته نحس وكأننا نقرأ نسقاً جديداً

ونسمع نظماً لم نكن قد سمعناه من قبل ولنلاحظ الإيقاع الصادر عن الجمل والنغ م الآسر الصادر عن الفواصل ذات الروي المتشابه والإيقاع المتفاوت في سورة النجم:

" **والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مِرّة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلّى . فكان قاب قوسين أو أدنى ' فأوحى إلى عبده ما أوحى**" (

النجم 1، 10)

وفي سورة الشمس :

" **والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها ، كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ، ناقة الله وسُقياها ، فكذّبوه فعقروها فدَمدَمَ عليهم ربّهم بذنبهم فسوّاها ولا يخاف عقباها**"

(الشمس 1، 15)

ومما يدخل في باب الفواصل التي يتفق فيها حرف الروي تلك التي يتشابه صوت الروي لدرجة كبيرة ، وذلك كما في صوتي (الميم) و(النون) إذا وقعا روّيا ، فكلاهما خيشوميان وفيهما غُنة وبهما ترنم خاص وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها " وقال بعض العلماء : كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون وحكمة وجودها التمكن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه إنهم (أي العرب) إذا ترنموا يلحقون الإلف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع "[1]

ويمكن ملاحظة ذلك التناوب البديع بين النون والميم المسبوقين بياء المد في سورة الفاتحة :

" **الحمدُ للهِ ربِ العالمين، الرحْ مَن الرَحيم، مالكِ يوْمِ الدين، إياكَ نعبدُ وإيَاك نَستعين، اهْدِنا الصراط المُسْتقيم ، صراط الّذين أنعَمتَ عليهمْ ، غيْرِ المغْضوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضّالين**"

(سورة الفاتحة)

وبعد فإن أسرار القرآن وعجائبه لا تنتهي ، وكلما تدبرنا القرآن وجدنا فيه سراً من أسرار إعجازه وعلى الرغم من عناية الباحثين قديماً وحديثاً بالبحث في إعجاز القرآن إلا أن موسيقى القرآن الكريم لم تحظ بعنايتهم كما حظيت وجوه الإعجاز الأخرى ، وهذا ما دفعني إلى تتبع روافد الموسيقى والتنغيم في القرآن والبحث في ذلك السر الآسر الكامن في تنغيمه وإيقاعه وموسيقاه ،

1 تاريخ أدب العرب – ج2 /227

وربما يزداد الآن إدراكنا لقوله تعالى : " **ورتل القرآن ترتيلا** " ذلك لأن الترتيل يضيف إلى تنغيم القرآن وإيقاعه نغماً وإيقاعاً آخر طارئاً عليه من خلال الأداء والقراءة ، فإذا اجتمع التنغيم والإيقاع الصوتي الكامن أصلاً في القرآن الكريم مع ذلك التنغيم والإيقاع الترتيلي ، لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال الذي يأسر الروح والقلب والعقل وسبحان الله تعالى إذ يقول لعباده المؤمنين :

" **وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**"..

... صدق الله العظيم ...

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- آراء في العربية – عامر رشيد السامرائي – مطبعة الإرشاد بغداد – 1965 م
- الإتقان في علوم القرآن – السيوطي (ت911 هـ) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم الطبعة الأولى – مكتبة ومطبعة الحسيني القاهرة
- الأصوات اللغوية – الدكتور إبراهيم أنيس – مكتبة نهضة مصر بالفجالة.
- الإعجاز الفني في القرآن – عمر السلامي – تونس 1980م
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي دار الكتاب العربي – بيروت 1410 هـ – 1990 م
- البرهان في علوم القرآن – بدر الدين الزركشي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى 1957م.
- البيان والتبيين – الجاحظ (ت 255) تحقيق عبد السلام هارون القاهرة – 1961م.
- البيان في روائع القرآن – الدكتور تمام حسان – الطبعة الأولى عالم الكتب – القاهرة 1413 هـ – 1993م.
- تاريخ آداب العرب – مصطفى صادق الرافعي – الطبعة الثالثة – ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان مطبعة الاستقامة – القاهرة 1953
- التصوير الفني في القرآن الكريم – سيد قطب – القاهرة دار المعارف 1386هـ – 1966م.
- التعبير الموسيقي – الدكتور فؤاد زكريا – دار مصر للطباعة الطبعة الأولى 1956م.
- التعبير الفني في القرآن – بكري شيخ أمين – دار الشروق – بيروت – الطبعة الثالثة – 1979م
- الحيوان – الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر 1938 م.

– الخصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجويد والتوليد محمد محمد المبارك – مطبعة نهضة مصر 1960م.
– دراسات في علم العروض والقافية – احمد محمد الشيخ – الطبعة الثانية – الدار الجماهيرية للنشر والإعلان 1988م.
– دراسة في الصوت اللغوي – احمد مختار عمر – عالم الكتب القاهرة – 1976م.
– دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني (ت 471) – صححه وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت لبنان 1398 هـ – 1978م
– الدلالة الصوتية في اللغة العربية – صالح سليم عبد القادر – منشورات جامعة سبها 1988م.
– صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – دار الرشيد سوريا حلب 1398م
– صور البديع (فن الأسجاع) – د. علي الجندي – دار الفكر العربي 1951م
– الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز يحيى بن حمزة العلوي – القاهرة 1914م.
– كتاب الصناعتين – أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) دار أحياء الكتب العربية – القاهرة – 1371 هـ .
– الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – الزمخشري (ت 538 هـ) دار المعرفة – بيروت.
– العروض والقافية – دراسة في التأسيس والاستدراك – محمد العلمي – الطبعة الأولى – دار الثقافة – الدار البيضاء – المغرب – 1983م.
– لغة القرآن الكريم في جزء عمّ – محمود أحمد نحلة – دار النهضة العربية – 1981م.
– مباحث في علوم القرآن – الدكتور صبحي الصالح – الطبعة (15) دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – 1983م.
– مجلة كلية الآ داب ، جماعة فؤاد الأول – المجلد الرابع عشر الجزء الأ ول – مايو سنة 1952م.
– محيط الفنون (2 الموسيقى) دار المعارف بمصر – القاهرة. بحث بعنوان (الموسيقى العربية من قبل الإسلام حتى سيد درويش) للدكتور محمود أحمد حنفي
– مناهج البحث في اللغة – الدكتور تمام حسان – القاهرة 1955م.
– موسيقى الشعر – الدكتور إبراهيم أنيس – مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الثالثة – 1979م.
– الموسيقى والغناء عند العرب – أحمد تيمور – الطبعة الأولى – 1963م.